الأمن المائي وأهمية الماء في الإسلام بين ترشيد استهلاكه واستخدامه كسلاح استراتيجي

د. عبد الرزاق قبا خليل
طبيب بيطري - حماة

يُعَدُّ الماء أساسَ الحياة ومصدر استمرارها، وقد أولى الدين الإسلامي العظيم عنايةً خاصةً بالماء، واعتبره نعمةً عظيمةً ينبغي المحافظة عليها وحسن استعمالها دون إسراف أو تبذير. إن تعاليم الإسلام الحنيف وضعت إطاراً قيمياً وأخلاقياً يوجّه سلوك المسلم في التعامل مع الموارد الطبيعية كافة، وفي مقدمتها الماء الذي ورد ذكره في مواضع عديدة من القرآن.

أولاً: مفهوم الأمن المائي:

يعرف الأمن المائي بأنه الكمية المتوفرة من الماء الجيد والكافي للصحة والإنتاج ومتطلبات الحياة، ومقرون بالمستوى الملائم من الخطر المتعلق بالماء. لا يمكن تحقيق التنمية المستدامة بدون أمن مائي في العالم. يتكامل العالم الآمن مائيًا مع القلق على قيمة الماء الجوهرية وبما يتعلق بأهميته لبقاء الإنسان وصحته.

إن التعريف المماثل للأمن المائي الذي وضعته لجنة الأمم المتحدة المعنية بالمياه هو: "قدرة السكان على ضمان الوصول المستدام إلى كميات كافية من المياه ذات الجودة المقبولة من أجل دعم سبل العيش، ورفاه الإنسان، والتنمية الاجتماعية والاقتصادية، وضمان الحماية من التلوث المنقول بالمياه والأخطار المرتبطة بالمياه" ومصطلح "الأمن المائي" واسع النطاق جداً وعادةً ما يُطبَّق بالنسبة إلى عمليات التقييم العامة لتوافر الموارد المائية في دولة ما مقارنة باستخدامه. وبالمثل، يشير مصطلح "الأمن المائي الأسري" إلى الحد الأدنى من المتطلبات من مياه الشرب للأسر والمرافق الصحية وبحسب تقرير لليونسكو عن التنمية المائية العالمية لعام ٢٠٢٥، فإن ما يقارب ٤ مليارات إنسان أو نصف سكان العالم يعانون من نقص حاد في المياه خلال جزء من العام على الأقل، كما أن مستويات الاستنزاف المائي ازدادت خلال الفترة من ٢٠١٢–٢٠٢١ في معظم أقاليم العالم وتحتل دول الشرق الأوسط صدارة معدلات الاستنزاف المائي، إذ تصاعدت مستويات الاستنزاف المائي بنسبة ١٢٪ منذ عام ٢٠١٥ حتى نهاية عام ٢٠٢٤، في ظل الأزمات الناجمة عن التغير المناخي، وفقًا لتقرير لجنة الأمم المتحدة للمياه.

ثانياً : أهمية الماء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

أ- أهمية الماء في القرآن الكريم :

إن الإسلام قدّم للبشرية منظومة أخلاقية متكاملة تنظّم علاقة الإنسان بخالقه وبالبيئة المحيطة به، وجعل الماء نعمة عظيمة يجب صونها وإكرامها، والترفق بها وعدم تبديدها. وتبقى رسالة المسلم في عصرنا الحاضر أن يكون قدوةً في الاعتدال، مستشعراً مسؤولية الحفاظ على هذه النعمة الجليلة، امتثالاً لقول الله تعالى : **وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا** (الأعراف : ٥٦).

وقد حثَّ إسلامنا الحنيف على الحفاظ على النعم التي حبانا بها الله وعدم الإسراف فيها.

كما حثّ القرآن على شكر نعم الله وعدم إفسادها، يقول تعالى : **كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** (الأعراف : ٣١).

وهذا توجيه رباني صريح بضرورة الاعتدال في استعمال الماء وغيره من النعم وعدم الإسراف بهذه النعم.

مما لا شك فيه أن للماء أهميةً وشأنًا عظيمًا في استمرارية الحياة على سطح الكرة الأرضية، بل يتوقف عليه مدار حياة جميع الكائنات.

وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** (الأنبياء : ٣٠)

في هذه الآية الجليلة تأكيد على أن أصل الحياة جميعها هو الماء، وأنه لا قيام للمخلوقات بدونه.

قال تعالى : **وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ** (المؤمنون : ١٨)، (**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ**) بحكمة وتدبير؛ لا أكثر فيغرق ويفسد، ولا أقل فيكون الجدب والمحل، ولا في غير أوانه فيذهب هباءً بلا فائدة.

وقال تعالى : **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** (الحجر : ٢٢)، أي : وأرسلنا الرياح وسخرناها تُلَقِّح السحاب، وتحمل المطر والخير والنفع، فأنزلنا من السحاب ماءً أعددناه لشرابكم وأرضكم ومواشيكم، وما أنتم بقادرين على خزنه وادِّخاره، ولكن نخزنه لكم رحمةً بكم، وإحسانًا إليكم.

وقال تعالى : **وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ** (المؤمنون : ١٨)، أي : (**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**) يكون رزقًا لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم، فلا ينقصه بحيث لا

يكفي الأرض والأشجار فلا يحصل منه المقصود، ولا يزيد زيادةً لا تحتمل بحيث يتلف المساكن، ولا تعيش معه النباتات والأشجار، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله ثم صرفه عند التضرر من دوامه.

(**فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ**) أي: أنزلناه عليها، فسكن واستقر، وأخرج بقدرة منزله جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضًا معدًا في خزائن الأرض، بحيث لم يذهب نازلاً حتى لا يوصل إليه، ولا يبلغ قعره.

(**وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ**) إما بأن لا ننزله، أو ننزله، فيذهب نازلاً لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه. وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته ويقدروا عدمها، وماذا يحصل به من الضرر، كقوله تعالى: (**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ**) هذا، ولما للماء من أهمية فقد ورد لفظ كلمة الماء مع مشتقاتها ٦٣ مرة في القرآن الكريم.

ب- أهمية الماء في السنة النبوية:

ومما جاءت به السنة النبوية لمقصد حفظ الماء من جانب العدم: نهي السنة عن تلويثه، فقد روى ابن ماجة في سننه: (**نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبال في الماء الراكد**)، والمقصد من هذا النهي هو الحفاظ على الماء، وإبقائه على حالته للاستعمال والانتفاع، وبالتالي فكل تصرف يخرجه عن ذلك فهو مناقض لمقصد الشريعة في حفظ الماء.

ومما يدل أيضًا على أن هذا المورد الهام والنعمة الربانية هو ملك لجميع البشر، لا يحق لأحد أن يستأثِر به أو أن يكون له امتياز فيه أو اختصاص، فقد ورد في الحديث الصحيح: عن رجل من الصحابة رضي الله عنه قال: غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول: (**الناس شركاء في ثلاثة: في الكلأ والماء والنار**). رواه أحمد وأبو داود، ورجاله ثقات.

وقد ورد في السنة النبوية الشريفة أحاديث تدل على مدى أهمية الماء والحث على الحفاظ على هذه النعمة التي حبانا بها الله، فقد بيّنت أيضًا عظمة شأن الماء، وحثّت على ترشيد استخدامه، حتى في أحوال العبادة والطهارة. فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حين رآه يسرف في الوضوء: (**ما هذا السرف يا سعد؟**) قال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: (**نعم، وإن كنت على نهر جارٍ**). رواه ابن ماجه.

هذا الحديث يبين قاعدة عظيمة في السلوك الإسلامي: لا إسراف حتى لو كان الماء وفيراً.

وهذه القاعدة العظيمة تنطبق على كافة الموارد بما يعزز مفهوم استدامة الموارد والحفاظ عليها، ومن هنا تبرز أهمية

ترشيد استهلاك الماء كقيمة حضارية وسلوك رشيد،

حيث يعتبر ترشيد استهلاك الماء سلوكًا حضاريًا يعبّر عن تقدير الإنسان للنعمة واحترامه للموارد المشتركة. وفي ظل التزايد السكاني وتغير المناخ وشحّ الموارد المائية في بعض المناطق، أصبح ترشيد استعمال الماء واجبًا شرعيًا وإنسانيًا.

ج- ترشيد استهلاك المياه:

يتحقق الترشيد من خلال جملة من التدابير والسلوكيات اليومية، أبرزها:

١- استخدام القدر الكافي من الماء للوضوء والغسل والاستعمالات الأخرى دون إسراف.

٢- صيانة مصادر المياه من التسرب والهدر.

٣- في الزراعة: الري بأساليب حديثة تقلل الفاقد مثل الري بالتنقيط وحصاد المياه، واستخدام التكنولوجيا الحديثة والذكاء الاصطناعي في تحديث أساليب الري وزراعة محاصيل تتحمل الجفاف أو تستهلك ماءً أقل، وتحسين التربة بإضافة مواد عضوية لحفظ الرطوبة.

٤- إعادة استخدام مياه الصرف المعالجة في الزراعة والصناعة.

٥- التوعية المجتمعية بثقافة الحفاظ على الماء ونشر الوعي من خلال الحملات الإعلامية والأنشطة المدرسية.

٦- تشجيع الابتكار في تقنيات جمع مياه الأمطار وتخزينها.

٧- دعم السياسات والقوانين التي تحد من الاستهلاك المفرط وتكافئ الاستخدام الرشيد .د

د - البعد الأخلاقي والاجتماعي لترشيد المياه:

إن المحافظة على الماء لا ترتبط فقط بالمسؤولية الفردية، بل تمتد إلى الإطار الجماعي الذي يضمن استدامة الموارد للأجيال المقبلة. فالماء حق مشترك للبشر جميعًا، من خلال قوله:

(الناس شركاء في ثلاثة: الماء والهواء والكلأ)، واستنزافه بغير حقّ يُعدّ تعديًا وإضراراً بالصالح العام، وهو ما يناقض مقاصد الشريعة الإسلامية في حفظ الضرورات الخمس، وفي مقدمتها حفظ النفس والمال.

وحريّ بنا جميعًا أن نعي أن ترشيد استهلاك الماء ليس ترفًا، بل ضرورة دينية وإنسانية تحمي حياتنا ومستقبل أبنائنا.

ثالثًا: أهمية الماء كسلاح استراتيجي في الإسلام:

أ- قصة بئر رومة وغزوة بدر نموذجًا :

لم يكن الماء في الحضارة الإسلامية مورداً حيوياً وحسب، بل تعدى ذلك ليصبح عنصراً استراتيجياً في إدارة الصراع وحماية الأمة وتحصين مقدراتها. وقد عرفت السيرة النبوية أمثلة راقية على هذا الوعي المبكر بقيمة المياه في الحرب والسلم على السواء. ويجسد بئر رومة وغزوة بدر هذه الرؤية الاستراتيجية الناضجة التي رسّخها الإسلام في نفوس المسلمين.

لقد ارتبطت السيطرة على مصادر المياه منذ القدم بفرض النفوذ وضمان البقاء، واعتبرتها الأمم من أسباب التمكين والغلبة. وقد أقر الإسلام هذا الفهم العقلاني دون أن يهدر البعد الأخلاقي والإنساني في استعمال الماء.

ب- قصة بئر رومة شراء استراتيجي في سبيل الله:

كانت بئر رومة من أطيب مياه المدينة المنورة وأغزرها، لكنها كانت مملوكة لرجل يهودي، وكان يبيع ماءها بثمن مرتفع يرهق المسلمين. وعندما قال النبي ﷺ: **(مَن يشتري بئر رومة فيجعل دلوه فيها كدلاء المسلمين بخيرٍ له منها في الجنة؟)**، تقدم الصحابي الجليل عثمان بن عفان رضي الله عنه فاشتراها وجعلها وقفًا للمسلمين.

هذه الخطوة لم تكن مجرد صدقة، بل كانت قراراً استراتيجياً يحقق:

- تأمين مصدر مياه دائم للمجتمع المسلم، وتحريره من الاحتكار.
- تخفيف الأعباء الاقتصادية عن المسلمين.

وبذلك تحولت بئر رومة إلى مثال خالد في توظيف المال في تعزيز الأمن المائي والتمكين الحضاري من خلال فرض السيطرة على الموارد ومنع العدو من احتكارها واستعمالها كسلاح موجه لتحفيز النفوذ وفرض السيطرة.

ج- غزوة بدر الماء في خدمة التخطيط العسكري:

في غزوة بدر تتجلى بوضوح عبقرية النبي ﷺ في التعامل مع الماء كسلاح استراتيجي. حين خرج المسلمون لاعتراض قافلة قريش، وصلوا إلى منطقة بدر ذات الآبار العذبة، فأمر ﷺ بأن يسبقوا المشركين إليها، فاستقروا على أدناها إلى جهة المدينة، ودفنوا ما عداها من الآبار لقطع الإمداد عن جيش قريش.

وهذا الإجراء الاستباقي حقق عدة أهداف حيوية:

١– التحكم في مصدر الشرب.

٢– إضعاف الخصم نفسيًا وبدنيًا.

٣– تعزيز روح الثقة في صفوف المسلمين.

ثم أمر النبي ﷺ ببناء عريش القيادة قرب بئر الماء المحمية، ليضمن الإشراف وإمداد الصفوف. ولم يكن ذلك العمل اعتباطيًا، بل كان تجسيداً للتخطيط العسكري الراشد، وفهم الطبيعة والظروف البيئية كعنصر قوة.

د – دروس استراتيجية وعبر خالدة:

تستخلص من هذين الموقفين جملة من القيم والمعارف المهمة:

١– الوعي بقيمة المورد المائي في إدارة الصراع.

٢– التكامل بين البعد الأخلاقي والبعد التكتيكي في استعمال الماء.

٣– استشراف النتائج بعيدة المدى لامتلاك مصادر المياه.

٤– حماية حقوق الجماعة المسلمة وصيانتها من الاحتكار.

٥– ضرورة الإعداد والتهيؤ المسبق لأي مواجهة.

خاتمة :

لقد علمنا الإسلام أن الماء نعمة عظيمة وسلاح فعّال في آن واحد، وأن حسن التدبير والاستباقية من مقومات التمكين. إن قصة بئر رومة وغزوة بدر تبرهن أن القيادة النبوية امتلكت رؤية استراتيجية متقدمة جعلت من الماء عنصراً مركزيًا في تحقيق النصر وصون الكرامة.

حريّ بكل فرد ومجتمع اليوم أن يستلهم هذه الأمثلة، وأن يرسخ ثقافة الوعي بأهمية الموارد المائية وترشيد استهلاكها والاستعداد لحمايتها واستثمارها في بناء الحضارة وصناعة المستقبل.

في مقابلة شهيرة عام ١٩٩٥ تنبأ الخبير الاقتصادي إسماعيل سراج الدين نائب رئيس البنك الدولي حينئذ بأن المياه ستكون محور حروب القرن الحادي والعشرين بدلاً عن النفط الذي كان محور حروب القرن العشرين، على حد وصفه وبعد مرور ٣٠ عامًا على ذلك التصريح أصدرت مجموعة ميرسي كوربس تقريراً في مايو/أيار ٢٠٢٥ أشار إلى أن العاصمة الأفغانية كابل قد تكون أول مدينة كبرى تستنفد مخزونها من المياه الجوفية بحلول عام ٢٠٣٠، مما سيؤدي إلى رحيل جماعي عن المدينة التي

تحتضن ٦ ملايين إنسان، ولا شك ستقترن بذلك اضطرابات اقتصادية وسياسية هائلة وبين نبوءة سراج الدين وأزمة كابل شهد العالم خلال ٣٠ عامًا كوارث بيئية غير مسبوقة ودرجات حرارة وموجات جفاف قياسية، خاصة في السنوات القليلة الماضية وفي ظل التحديات المناخية المتسارعة التي يشهدها الشرق الأوسط، وما يرافقها من موجات جفاف متكررة وارتفاع في درجات الحرارة، إضافةً إلى الطلب المتزايد على الموارد المائية، أصبح الأمن المائي قضية وجودية لا تحتمل التأجيل. وتشير المؤشرات المناخية الحديثة إلى أن المنطقة ستواجه في العقود القادمة انخفاضًا أكبر في معدلات الهطول المطري، وزيادة في معدلات التبخر، ما سيضاعف الضغوط على الموارد المائية السطحية والجوفية وإنَّ تبني الإجراءات التي ذكرت في المقال بشكل عاجل وفعّال سيُسهم في ضمان استدامة الموارد المائية، وتقليل المخاطر المرتبطة بتغير المناخ، وتفادي النزاعات المستقبلية التي قد تشتعل حول المياه، والتي يُتوقع أن تكون أحد أبرز أسباب الحروب القادمة في المنطقة.

المصادر :

١– السنة النبوية

٢– تقرير اليونسكو عن التنمية المائية العالمية لعام ٢٠٢٥.

٣– تقرير لجنة الأمم المتحدة للمياه.

٤– تقرير مجموعة Mercy Corps، مايو ٢٠٢٥، عن استنزاف المياه الجوفية في كابل.

٥– مقابلة إسماعيل سراج الدين (نائب رئيس البنك الدولي سابقًا) عام ١٩٩٥ حول حروب المياه.